خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي ؑ

بتاريخ ٢٠٢٦/٢/٢٧

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم * الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَن الرَّحيم * مَالك يوْم الدِّين * إيَّاكَ نعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقيمَ * صِرَاط الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

جاء جميع الأنبياء في العالم لإقامة التوحيد، وعلّموه أقوامهم، غير أن أغلبية الناس نبذوه وراء ظهورهم لسوء حظهم. وقد جاء النبي ﷺ أيضا بالرسالة نفسها، أي لمواصلة المهمة نفسها، ولإحياء روح التوحيد في نفوس أتباعه. والمكانة التي يحتلها النبي ﷺ بهذا الشأن لا يشاركه فيها أحد. فحين نصح ﷺ بالإيمان بالتوحيد، قدم بتعليم من الله الأدلة أيضا على قبوله. وحين جاهد ضد الشرك، لم يكن يفعل ذلك بغير دليل، بل أوضح مساوئ الشرك وخلق في قلوب الناس كراهية تجاهه. وقد أثبت أتباعُه بعملهم أن تعاليم التوحيد والنفور من الشرك قد سرت في عروقهم. وذلك لأن التعليم الذي أنزله الله على النبي ﷺ كان شاملا ومؤثرا جدا، لدرجة أنه ما كان ممكنا أن يدرك المرء عمقه ثم يبتعد عنه. وهذا التعليم الذي أثّر في أتباعه كان بالغ التأثير لأن كل قوله ﷺ وفعله كان صورة حية للتعليم الذي أنزله الله تعالى عليه. وكان ﷺ نموذجا عمليا لهذا التعليم العظيم.

وكان همّه ﷺ الأكبر ألا يتطرق إلى الأمة المسلمة ذنب كبير مثل الأقوام الأخرى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. فاستعاذ النبي ﷺ بالله من أن يُتَّخذ شريكا لله تعالى، ووصّى أمته بألا يتخذوه وسيلة للشرك، ولا تنصرف أبصارهم إلى سوى الله ﷻ.

لقد ذكرت في الخطب الماضية حب النبي ﷺ وعبادته لله ﷻ. والأحداث التي استشهدت بها من حياة النبي ﷺ بهذا الشأن، كانت كلها ترشد إلى التوحيد ويلاحَظ فيها حماسه وحرقته ﷺ لترسيخ دعائم التوحيد. وهذا ما يعكس أعلى مرتبة وهبه الله تعالى إياها لإقامة التوحيد. كذلك تعلم بعمق التعليم الإلهي الأخير والكامل.

وقد عُلِّمنا التوحيد في القرآن الكريم من زوايا متعددة وبالتكرار، كقوله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

وإن أساليب العبادة التي علّمها اللهُ النبيَّ ﷺ، وبالأسلوب الذي أدّى به ﷺ حق التوحيد، لا يوجد عُشر معشاره في عبادة أي دين آخر. ثم يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ فحين يتلو المسلم الحقيقي هذه الآية يُعلن أيضا أن عليه عبادة الله بإخلاص تام، والسعيُ لإقامة التوحيد الخالص، والتأسي بالأسوة التي قدمها النبي ﷺ بهذا الإعلان وما أمر به القرآن الكريم. فلو رفعنا مستوى عباداتنا إلى جانب إقامة التوحيد الخالص لأمكننا أن نحدث ثورة حقيقية، وسنُعدّ موحدين حقيقيين وإلا فليس ذلك إلا ثرثرة اللسان فقط.

ثم يقول الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

ويقول في آية أخرى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

ثم أعلن ﷻ وحدانيته في نهاية القرآن الكريم قائلا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

فقد دحض الله هنا الشرك بكل أنواعه، وأمر النبي ﷺ أن يعلن ذلك في العالم. فواجبنا -نحن المؤمنين به ﷺ حين نتلو هذه الآيات- أن نُعلن التوحيد الخالص الذي أُعلن به في هذه السورة وفي مواضع كثيرة أخرى، وأن نُبيّن للعالم بأقوالنا وأعمالنا أن الله وحده هو الأحد الذي ليس محتاجا إلى أي شيء بل كل شيء محتاج إليه. ليس له أب ولا ابن، ولا مثيل له ولا ندّ.

هذا إعلان يدحض التعاليم المحرّفة لكل دين. وبإعلان هذا التعليم يمكن للإنسان أن ينال قرب الله تعالى. وإن أعلى وأسمى مثال على ذلك هو سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ الذي قضى كل لحظة من حياته ساعيا لإرساء دعائم التوحيد، بل ربّاه الله تعالى منذ طفولته لإقامة التوحيد الخالص، كما قلتُ من قبل.

هذه بضع أمثلة قدمتُها من القرآن الكريم، وإلا فالقرآن الكريم مليء بهذه الرسالة. وسأقدم الآن بعض الأحداث من سيرة النبي ﷺ وهي تُبيّن مدى حرقته وسعيه للتوحيد من طفولته إلى إعلان نبوّته وعلى امتداد حياته كلها.

كان النبي ﷺ ذا فطرة نقية جدا بحيث كان حُبّ التوحيد قد سرى في كل ذرة من كيانه، وكان بطبعه يكره الشرك وعبادة الأوثان حتى قبل أن يتبوأ منصب النبوة. فقد ورد في رواية عن أم أيمن رضي الله عنها قالت: كان بِبُوانةَ صنمٌ تحضُره قريش وتعظّمه وتنسِكُ له النسائكَ، ويعكفون عنده يوما في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يريد أن يذهب إليه برسول الله ﷺ مع قومه، فيأبى رسول الله ﷺ، حتى إن عماته ﷺ وأبا طالب وعماته غضبوا عليه أسوأ الغضب، وقالوا له: ما تريد يا محمد، ألا تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تُكثِر لهم جمعًا؟ فذهب هناك بعد إلحاح وإصرار من عماته، ولكنه رجع مرعوبا جدا وقال لقد رأيت هناك مشهدا عجيبا. فقالت عماته مِن المحال أن يؤثر الشيطان على إنسان صالح مثله، فسألنه: ما الذي رأيتَ؟ قال ﷺ: كلما دنوت من الصنم تمثّلَ لي رجل أبيض يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسَّه.

قالت أم أيمن: فما عاد النبي ﷺ إلى عيدٍ للمشركين بعدها، وحفظه الله من التقاليد الوثنية دوما. وهذا الحادث كان قبل دعوى النبوة.

خرج النبي ﷺ في صغره مع عمه أبي طالب في سفر إلى الشام، فلقي هناك بحيرى الراهبَ المسيحي، فقال له النبي ﷺ ردًا على سؤال له: لا تسألْني بحق اللات والعزى، فوالله ما أبغضتُ شيئا قط بُغْضَهما.

ولما ذهب النبي ﷺ إلى الشام بأموال تجارة خديجة رضي الله عنها، با ع هناك بضائعها واشترى بها سلعًا أخرى، فوقع بينه ﷺ ورجلٍ اختلافٌ فقال له: احلفْ باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: ما حلفتُ بهما قط، وأني لا أمرّ بهما إلا مُعرِضا عنهما، وأنت تسألني أن أحلف بهما! هذا محال.

وبحثًا عن توحيد البارئ نفسه كان النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء، وقد مرّ هذا الذكر من قبل أيضا. لقد رسم حضرة مرزا بشير أحمد رضي الله عنه في هذا السياق ما كان في قلب النبي ﷺ من حماس لعبادة الله واضطراب لإرساء توحيد البارئ تعالى، فقال: يوجد غار حراء في جبل من جبال مكة الشهيرة، ويقع على بعد ثلاثة أميال منها، ويسمى في هذه الأيام جبل النور. كان النبي ﷺ يكره الأصنام، وكان يتأسف على عَبَدَتِها البعيدين عن الله الواحد الأحد (كان ﷺ لا يكره الأصنام فقط، بل كان يتأسف على الناس أنهم لماذا يعبدونها) وكان قبل بعثته يتعبد في هذا الغار في خلوة بعيدا عن الناس. ولما بلغ النبي ﷺ الأربعين من عمره ظهر له جبريل عليه السلام ذات يوم، ونزل عليه ﷺ أول وحي بعثه به الله نبيا. وبعد نزول هذا الوحي الأول شرع النبي ﷺ في دعوة القوم إلى توحيد البارئ ورفضِ الشرك. ولكنه في البداية لم يدع الناس جهرًا، بل قام بمهمته سرا، ودعا فقط معارفه الذين يلقونه.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام:

"كان نبينا ﷺ المجدد الأعظم في مجال بيان الحق، وهو الذي أعاد الحق المفقود إلى الدنيا ثانية، ولا أحد يشارك نبيَّنا ﷺ في هذا الشرف والفخر. لقد وجد العالم كله في ظلام، فتحوّل الظلام إلى النور بظهوره ﷺ، ولم يغادر الدنيا حتى خلعَ كلُّ القوم الذين بُعث فيهم لباسَ الشرك، ولبسوا رداء التوحيد، وليس هذا فحسب، بل بلغ هؤلاء القوم أسمى مراتب الإيمان، وقد ظهرتْ على أيديهم من أعمال الصدق والوفاء واليقين ما لا يوجد له نظير في أي مكان في العالم. وإن هذا النجاح الباهر، وبهذا القدر، لم يكن مِن نصيب أي نبي سوى نبينا ﷺ. وهذا هو الدليل الأكبر على صدق نبوة رسول الله ﷺ، حيث بُعث وظهر في زمنٍ غارقٍ في الظلمات يطلب بلسان حاله بعثةَ مصلح عظيم الشأن، ثم إنه ﷺ ما غادر الدنيا إلا بعد أن تمسك آلاف من الناس بالتوحيد والصراط المستقيم، متخلين عن الشرك وعبادة الأصنام. والحق أن هذا الإصلاح الكامل كان خاصًّا به وحده، حيث علّم قومًا همجيين ذوي طبائع وحشية؛ الآدابَ الإنسانية، أو بتعبير آخر جعل البهائم أناسًا، وحوّل هؤلاء الناس إلى أناسٍ مثقفين، ثم جعل هؤلاء المثقفين أناسًا ربانيين، ونفخ فيهم الروحانية وربطهم بالإله الحق. لقد ذُبحوا في سبيل الله كالمعز، ودِيسوا تحت الأقدام

كالنمل، ومع ذلك لم يتخلوا عن الإيمان أبدًا، بل مضوا قُدُمًا عند كل مصيبة. فلا شك أن نبينا ﷺ هو آدم الثاني من حيث إرساء دعائم الروحانية، بل هو آدم الحقيقي الذي بلغتْ على يده كلُّ الفضائل الإنسانية كمالها، وأخذتْ جميعُ القوى الصالحة تعمل عملها، ولم يبق غصن من أغصان الفطرة الإنسانية بغير ورق وثمر، ولم تُختم عليه النبوة من حيث كونه الأخير زمانًا فقط، بل أيضا لأن جميع كمالات النبوة خُتمتْ عليه".

ثم يقول حضرته عليه السلام في مكان آخر:

"ألف ألف شكر لك يا ربَّنا، على أنك بنفسك هديتنا إلى سبيل معرفتك، وأنقذتنا من أخطاء وهفوات فكرية وعقلية بإنزال كتبك المقدسة. والصلاة والسلام على سيد الرسل محمد المصطفى ﷺ وعلى آله وأصحابه، الذي أرشد إلى الصراط المستقيم عالَما ضالا، ذلك المربي النافع الذي هدى الخلق الضال إلى الصراط السوي من جديد، ذلك المحسن ذا المنة الذي خلّص الناس من بلاء الشرك والأوثان، ذلك النور وناشر النور، الذي نشر نور التوحيد في الدنيا، ذلك الطبيب ومعالج الدهر الذي ثبّت أقدام القلوب التي كانت فاسدة على عتبات الصلاح، ذلك الكريم، رمز الكرامة الذي سقى الأموات ماء الحياة، ذلك الرحيم المتعاطف الذي حزن للأمة وتأذى، ذلك الشجاع والبطل الذي انتشَلنا من فوّهة الموت، ذلك الإنسان الحليم الذي أفنى نفسه و الذي أخضع رأسه في تربة العبودية وسوّى ذاته بالتراب، ذلك الموحد الكامل وبحر العرفان الذي ما راقه إلا جلال الله، وأسقط غيره من نظره، إنه معجزة من قدرة الرحمن الذي غلب في جميع العلوم الصادقة مع كونه أميّا، وأدان كل قوم على أخطائهم وتقصيراتهم."

ويقول عليه السلام أيضا:

"ما يسمَّى التوحيد لا يوجد على صفحة الأرض اليوم في أي قوم سوى أمة النبي ﷺ، ولا يوجد كتاب يُقِيم الملايين من الخلق على وحدانية الله ويرشدهم إلى ذلك الإله الصادق بتعظيمه الكامل إلا القرآن الكريم. قد اتخذ كل قوم إلها زائفا له، أما المسلمون فلهم الإله نفسه الموجود منذ الأزل لا يزول ولا يتبدّل، ولا زال كما كان من حيث صفاته الأزلية."

لكن الأسف أن الأمة المحمدية اليوم أيضًا أخذت تنسى شيئًا فشيئًا عظمة هذا التوحيد، ولم يبقَ فيها التوحيد الحقيقي الذي علّمه الله تعالى، والذي نصحنا به وعلّمنا إياه النبي ﷺ بكل حرقة وألم. وبسبب نسيان التوحيد الخالص، لم يعد فيهم الإيمان الخالص بصفات الله تعالى كما ينبغي أن يكون للمسلم الحقيقي. ففي مثل هذه الحالة، يقع على عاتق المؤمنين بالخادم الصادق للنبي ﷺ مهمة أن يستوعبوا حقيقة التوحيد، ومن ثم يُحدثوا في أنفسهم تغييرات مطلوبة.

وهذا الشهر أي شهر رمضان خاص بالعبادة، فينبغي فيه السعي الخالص لتحقيق هذا الأمر المذكور والدعاء من أجله. فإنْ ادعينا محبة النبي ﷺ وجب علينا أن نسعى سعيًا خاصًا -كما سعى هو ﷺ طوال حياته- من أجل إقامة التوحيد.

كيف بذل ﷺ سعيه -بأمر الله تعالى- لإقامة التوحيد، وكيف تحمّل في سبيله المصاعب؟ بيّن ذلك المصلح الموعود رضي الله عنه في موضع كما يلي:

"يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، أي يا محمد من واجبك تحذير الناس من كل أنحاء العالم، ولكن عليك أن تُنذر أقاربك أوّلاً، فلهم عليك حقّانِ: فإنهم يهلكون كباقي الناس، ثم إنهم أقاربك وإن آباءهم قد صنعوا بك معروفًا في يوم من الأيام. يقول المثل الإنجليزي: Charity begins at home أي: إن الصدقة والإحسان يبدأ من البيت. ونفس الحال بالنسبة للنصح، فعلى الإنسان أن يبدأ النصح بأهل بيته. وعملاً بهذا الأمر الرباني صعد ﷺ على جبل "الصفا" كعادة أهل مكة، وأخذ ينادي كل قبيلة باسمها. فنادى "آل غالب" أولاً، فخرجوا من المسجد الحرام وأتوه عند سفح جبل "الصفا"، فقال أبو لهب للنبي ﷺ: ها قد جاء "آل غالب"، فقُلْ ما تريد. ولكن النبي ﷺ لم يلتفت إليه، بل أخذ ينادي "آل لؤي". فلما حضروا قال أبو لهب: لقد جاء "آل لؤي" فقل ما تريد. ولكن الرسول ﷺ لم يستمع لقوله وأخذ ينادي "آل مُرّة". فلما حضروا، أخذ ينادي "آل كِلاب" و"آل قَصي". فحضرت قبائل قريش جميعًا، ومن لم يحضر منها بعث ممثله، ليعلم سبب طلبهم لهذا الاجتماع. فلما اجتمعت قبائل مكة كلها بما فيها قريش أيضا، خاطبهم النبي ﷺ وقال: لو قلت لكم إن جيشًا كبيرًا قد اجتمع وراء هذا الجبل لشن الغارة عليكم، فهل كنتم مُصدِّقِيّ؟ قالوا: بلى، فما جرّبنا عليك إلا الصدق. ويعلم المطّلعون على أحوال مكة أن قول الرسول ﷺ هذا يماثل قول من يُطالب بتصديق المستحيل. ذلك أن أهل مكة كانوا يرعون مواشيهم في ذلك الوادي، وكانوا يعرفون أنه من المحال أن يختفي فيه جيش.

ولكنهم كانوا متأثرين بصدق النبي ﷺ وسداده لدرجة أنهم صدّقوه وإن لم تصدق عيونهم ما يقول، لأن صدقه أمر لا غبار عليه. فلما اعترفوا بصدقه وسداده بلسان رجل واحد قال ﷺ ألا إني قد جئتكم بخبر هام. ألا إن الله تعالى قد بعثني إليكم رسولاً، فاتّبِعوني إذا أردتم النجاة من عذاب الله تعالى. فلم يتمالك أبو لهب نفسه وقال: "تبًّا لك، سائر الأيام، ألهذا جمعتَنا"، وبذلك انصرف الآخرون أيضا ضاحكين مستهزئين، إلا أن ذلك الاستهزاء لم يمنعه عن السعي لإقامة التوحيد، بل ظل يواظب على ذلك بصبر".

فقد استُهزئ به ﷺ كما قلت وزادت معارضتُه، فقد سجل حضرة مرزا بشير أحمد رضي الله عنه تاريخ معارضته ﷺ من كتب التاريخ فقال:

قدر ما كانت المهمة التي بُعث من أجلها النبيُّ ﷺ كان ينبغي أن يتلقى المعارضة الشديد بمثل حجمها، لأنه كان قد بعث في زمن قد انتشر فيه الظلام بشدة، وعند ظهور النور من الضروري أن تتصدى له جيوش الظلام ولا تدخر جهدا في مقاومته، فهذا ما حدث إذ قد واجه المعارضة أشد من سائر الأنبياء، وكان من ظاهر أسباب هذه المعارضة، أن قريشا كانوا قوما يعبدون الأصنام لأقصى حد، وكانت الأوثان قد شغفتْهم حبا وكرامة لدرجة لم يكونوا يتحملون سماع كلمة واحدة ضدها، والكعبة التي كانت قد بُنيت لعبادة الله فقط، كان أولئك الظالمون قد جمعوا فيها مئات الأوثان، وكانوا يتوجهون إليها لسد جميع حاجاتهم. فلما جاء الإسلام كان أصل أصوله توحيد البارئ تعالى وأمَر صراحة أن لا تسجدوا لأي إنسان أو شجر أو حجر أو نجم وغيرها، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، وليس ذلك فحسب بل كانت أصنام قريش تُذكر في رأيهم بكلمات مسيئة وتُعَدُّ حصبَ جهنم. فهذه الأمور جعلتْهم يستشيطون غضبا، فنهضوا متحدين للقضاء على الإسلام.

كانت هناك أسباب عدة أخرى أيضا لكنه كان أكبرها.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام:

"عندما يُبعث نبي أو رسول من الله ويرى الناس جماعته نشيطة وصادقة وعالية الهمة ومزدهرة، فإنه يتولد في قلوب مختلف الشعوب والفِرق المعاصرة نوعٌ من البغض والحسد حتما، وإن علماء كل دين والنساك والرهبان، يُظهرون لهم بغضا كبيرا على وجه خاص، لأنه ببعثة ذلك الرجل الإلهي، يتضرر رزقُهم وعظمتُهم؛ حيث ينفلت من قبضتهم تلاميذُهم ومريدوهم، لأنهم يرون كل أنواع محاسن الإيمان والأخلاق والعلم في ذلك الرجل الذي بُعث من الله – سبحانه وتعالى –، (أي يتخلى سليمو الطبع من المريدين عن مرشديهم ويتوجهون إلى ذلك الرجل الإلهي) فيدرك أهلُ العقل والقادرون على التمييز بين الحق والباطل أن رجال الدين والمشايخ لم يعودوا يستحقون التقدير لعلمهم وتقواهم وورعهم المزعوم، وأن ألقاب الشرف التي وُهبتْ لهم مثل "نجم الأمة" و"شمس الأمة" و"شيخ المشايخ" لم تعد تصلح لهم، ولم يعودوا أهلا لها، فيُعرض عنهم العقلاء نظرا لهذه الأسباب، لأنهم لا يريدون أن يُضيعوا إيمانهم. (هذا ما يفعله المؤمنون وسعداء الفطرة) لذا فقد ظلّ المشايخ وعلماء الدين يحسدون الأنبياء والرسل بسبب هذه الخسائر على مرّ التاريخ، وذلك لأنهم يُفتضَحون في زمن أنبياء الله والمبعوثين منه ﷻ أشد فضيحة؛ لأنهم في الحقيقة ناقصون، وليس لديهم إلا نزرٌ يسيرٌ من النور، وإنّما يعادون أنبياء الله ومقربيه بدافع أهواءهم النفسانية فقط، ويفكرون في نسج المكائد لإلحاق الضرر بهم اتّباعا للنفس فقط. ومع أنهم يشعرون أحيانا بأنهم يتعرضون لغضب الله تعالى لإيذائهم عبدا طاهرا مقدسا، وأنّ أعمالهم المعادية التي تصدر منهم كل حين وآن تعكس لهم على الدوام الوضع الإجرامي لقلوبهم، إلا أن قاطرةَ نارِ الحسد السريعةَ تسوقُهم وتجرُّهم إلى هوة العداوة باستمرار.

فهذه هي الأسباب التي لم تحرم علماء المشركين واليهود والنصارى من قبول الحق في زمن النبي ﷺ فحسب بل قد دفعتْهم إلى العداء الشرس، فصار همُّهم الشاغل نسجَ المكائد لمحو الإسلام من وجه الأرض بأية حال. فلما كان المسلمون في أوائل الإسلام قليلا، فإن أعداءهم الذين كانوا يرون أنهم أكثر منهم مالا وعددا وأعلى شرفًا ومرتبة، عادَوا الصحابةَ أشدَّ عداء، وذلك بسبب التكبر الراسخ في طبائعهم وقلوبهم وأذهانهم، إذ لم يكن يُعجبهم أن تستوي هذه الغرسة السماوية على أصولها. فظلوا يستنزفون الجهود للقضاء على أولئك الأبرار، ولم يدّخروا جهدا في إيذائهم واضطهادهم، إذ كانوا يخافون أن تثبت أقدام هذا الدين، فيؤدي ازدهارُه وتقدّمُه إلى تدمير دينهم وقومهم، فدفعهم هذا الخوفُ الذي تملّكهم إلى ممارسة أعمال الظلم الشنيع والجور الشديد، فأَهلكوا الكثير من المسلمين بأساليب مؤلمة ومؤذية جدا، واستمرت أعمال الظلم هذه لمدة طويلة تقدَّر بثلاثة عشر عاما، ومُزِّق عباد الله الأوفياء - الذين هم فخرُ بني نوع البشر - إربا إربا بسيوف أولئك الأشرار الهمجيين بمنتهى القسوة ودون هوادة، وذُبح الأولاد اليتامى والنساء العاجزات المسكينات في الأزقة والشوارع. ومع ذلك كان التأكيد من الله ﷻ ألا يقاوموا الشر، فامتنع أولئك الأبرار المقربون عن المقاومة امتثالا لهذا الأمر الإلهي. فاحمرّت الأزقة بدمائهم فلم يتذمروا ولم يشتكوا، وذُبحوا كالقرابين ولم يتأوهوا". (الحكومة الإنجليزية والجهاد)

لقد حذره ﷺ كفارُ مكة من نشر التوحيد وأغرَوه أيضا، لكن جوابه كان ينحصر في قوله: إن الغاية المتوخاة من حياتي تنحصر في أن أنشر التوحيد في العالم ومن أجل ذلك قد بعثني الله ﷻ، وعن ذلك يقول سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه:

حين اشتدّت المعارضة، وبدأ الرسول الكريم ﷺ وصحابته الكرام يُبلّغون أهل مكة بإلحاح الرسالة الربانية، مُعلنين أن الإله الخالق لهذا الكون واحد لا شريك له، وأنه لا معبود سواه، وأن جميع الأنبياء الذين مضوا كانوا يُقرّون بوحدانيته ويدعون أقوامهم إلى هذه التعاليم ذاتها، قائلين لهم: آمِنوا بالله الواحد، واتركوا هذه الأصنام الحجرية التي لا نفع فيها ولا قوة، يا أهل مكة، أفلا ترون أن ما يُوضع أمامها من قرابين ونذور، لو حطّت عليها ذبابة لعجزت عن طردها، ولو هاجمها أحد لم تستطع الدفاع عن نفسها، ولو سألها أحد لم تُجبه، ولو استغاث بها أحد لم تُغثه.

أما الله الواحد، فهو يقضي حوائج السائلين، ويُغيث المستغيثين، وينصر المستنصرين، ويقهر أعداءه، ويرفع عباده المخلصين إلى أسمى الدرجات. منه ينبعث النور الذي يضيء قلوب المؤمنين به. فلماذا تتركون مثل هذا الإله وتنحنون أمام أصنام لا حياة فيها، وتُضيّعون أعماركم سُدى؟

أَلَا ترون أن إعراضكم عن توحيد الله قد أدى إلى فساد أفكاركم وأظلم قلوبكم، وابتلاكم بضروب من الأوهام والخرافات؟ (وتنشأ هذه الأوهام في القلوب حين يُترك التوحيد) ولم يَعُد فيكم تمييزٌ بين الحلال والحرام، ولا فرقٌ بين الخير والشر. تُهينون أمهاتكم، وتظلمون أخواتكم وبناتكم وتحرمونهن حقوقهن،

وتسيؤون معاملة زوجاتكم، وتأكلون حقوق الأيتام، وتُسيئون معاملة الأرامل، وتَظلمون الفقراء والضعفاء، وتبتغون العلو والكبرياء بانتهاك حقوق الآخرين. ولا ترون في الكذب والخداع عارا، ولا تكرهون السرقة والنهب، وشغلكم الشاغل القمار والخمر، ولا تلتفتون إلى طلب العلم وخدمة الوطن.

إلى متى تظلون غافلين عن الله الواحد؟ هلمّوا وأصلحوا أنفسكم، وانبذوا الظلم، فقد تمكّنت منكم هذه الرذائل فأصلحوها. (وهذه السيئات لا تزال موجودة اليوم أيضًا فيمن يحملها، وسببها البُعد عن التوحيد. فكل أمة تقع فيها هذه الشرور، حتى لو وُجد فيها خيرٌ ما، تجد فيها كثيرًا من هذه الرذائل التي ذكرتُها، وسبب ذلك أنهم بعيدون عن التوحيد، ومما يُؤسَف له أن حال بعض المسلمين ليس بأفضل من ذلك.)

ثم قال حضرته ﷺ: "إن طريق التقرب إلى الله هو أن تُعطوا كل ذي حق حقه، (وهذا أمر مهم للغاية) فإن أعطاكم الله مالًا فأنفقوه في خدمة الوطن والقوم وفي النهوض بالضعفاء والفقراء، وأكرموا المرأة وأدّوا حقوقها، وعدّوا الأيتام أمانةً في أعناقكم من الله واحسبوا رعايتهم من أرفع الحسنات، وكونوا سندًا للأرامل، وأقيموا الصلاح والتقوى، واجعلوا شعاركم الرحمة والإحسان لا العدل والإنصاف فحسب، فالعدل وحده لا يكفي، بل لا بد معه من الرحمة والإحسان، وهذه تعاليم المؤمن الحق. ينبغي ألّا يكون مجيئكم إلى هذه الدنيا عبثا وسدى، فاتركوا من بعدكم آثارًا طيبة تُغرس بها بذور الحسنة الدائمة. واعلموا أن الكرامة الحقيقية ليست في أخذ الحقوق بل في التضحية والإيثار. فلا تقتصروا على المطالبة بحقوقكم، بل قدّموا التضحية والإيثار. وضحّوا تقتربوا من الله، وأظهروا الإيثار تجاه عباد الله حتى يثبت لكم حق عند الله.

هذه هي علامات الثبات على التوحيد الحق. نعم، نحن المسلمون ضعفاء، لكن لا تنظروا إلى ضعفنا. وقال حضرته ﷺ أيضًا: لقد صدر الحكم في السماء بانتصار الحق. وسيُقام بمحمد رسول الله ﷺ ميزان العدل، وستقوم حكومة العدل والرحمة التي فيها لا يُظلَم أحد، ولا يُتدخَّل في شؤون الدين، وستُمحى المظالم التي لحقت بالمرأة والعبيد، وستُقام حكومة الله الواحد مكان حكومة الشيطان.

فلما تكرر تبليغ هذه التعاليم لأهل مكة وبدأت قلوب ذوي الفطرة السليمة تميل نحو الإسلام، اجتمع سادة مكة يومًا وتوجهوا إلى عمّه أبي طالب وقالوا له: أنت سيدنا وزعيمنا، ومراعاة لمكانتك لم نتعرّض لابن أخيك محمد (ﷺ) بسوء. وقد آن الآوان أن نتخذ معك قرارًا حاسمًا: إما أن تُقنعه وتسأله ماذا يريد منا، فإن كان يطمح إلى الجاه والمكانة فنحن مستعدون أن نجعله سيدنا، وإن كان يرغب في المال فكل منا مستعدٌّ أن يعطيه نصيبًا من ماله، وإن أراد الزواج فليُسمِّ من تعجبه من فتيات مكة ونحن نزوّجه إياها. ولن نطلب منه شيئًا في المقابل ولن نمنعه من أي أمر، غير أننا نريد منه شيئًا واحدًا: أن يكفّ عن سبّ آلهتنا. فليقل ما شاء في توحيد الله، لكن لا يصف آلهتنا بالسوء. فإن قبِل هذا الشرط فإننا على استعداد للصلح معه. فأقنعْه واحمله على قبول عرضنا، وإلا فأمر أحد الأمرين: إما أن تتخلى عن ابن أخيك، وإما أن يتخلى عنك قومك وينكروا زعامتك." وكان هذا الموقف شديد الوطأة على أبي طالب.

كان العرب لا يملكون من المال إلا القليل، وكانت سعادتهم كلها في سيادتهم. كان زعماء القوم يعيشون لأجل الأمة، وكانت الأمة تعيش لأجل زعمائها. فلما سمع أبو طالب هذا الكلام اضطرب، فنادى محمدًا رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، إن قومي قد جاءوني وأبلغوني هذه الرسالة، وأخبروني كذلك أنهم قد عرضوا كل أنواع العروض، وبيّنوا أنهم مستعدون لإعطائها، فإن لم يرضَ ابنُ أخيك بواحدة من هذه الأمور، فإنهم قد أدّوا ما عليهم من عرضٍ واقتراح. فإن لم يكفّ عن طريقته، فالأمر إليك أن تتخلى عنه، وإن لم تكن مستعدًا لتركه فإننا سنتبرأ من زعامتك ونتركك.

فلما قال أبو طالب ذلك اغرورقت عيناه بالدموع. ولما رأى رسول الله ﷺ دموع عمه فاضت عيناه أيضًا، فقال: "يا عمّاه، لا أقول لك أن تترك قومك وتؤازرني، بل إن شئت فاتركني وكن مع قومك. ولكن والله الذي لا إله إلا هو، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك الدعوة إلى توحيد الله، ما تركتها، وسأظل قائمًا بأمري حتى يُظهره الله أو أهلك دونه. فانظر في أمرك وما تراه أصلح لك".

وكان هذا الجواب المفعم بالإيمان والإخلاص كافيًا ليفتح عيني أبي طالب؛ فأدرك أنه وإن لم يُرزق الإيمان، فإن مشاهدة هذا الإيمان نعمة تفوق كل النعم. فقال: يا ابن أخي، امضِ وأدِّ واجبك، فإن أراد القوم أن يتركوني فليفعلوا، أما أنا فلن أتركك.

ولإقامة التوحيد تحمّل النبي ﷺ كل صنوف الظلم والأذى من كفار مكة، وغرس هذه الروح في أصحابه أيضًا، كما كتب المسيح الموعود عليه السلام. فقد قُطعت رقابهم، وكانوا يعلنون "أحدٌ أحد" وهم يصبرون على الأذى ويضحّون بأنفسهم. وإن جميع مساوئ كفار مكة التي ذُكرت إنما كانت بسبب بُعدهم عن التوحيد ووقوعهم في الشرك. وكذلك اليوم، فإن ما يظهر في الأمم والأفراد من هذه المفاسد إنما هو نتيجة البعد عن التوحيد.

فواجبنا إذن أن نواصل إعلان التوحيد، وأن نسعى – حيثما نبلّغ رسالة التوحيد – إلى إحداث تغييرٍ واضح في أحوالنا الروحية والأخلاقية؛ فعندئذ فقط نستحق أن نُسمّى من أهل التوحيد الحقيقيين، ومن التابعين لأمر الله تعالى. نسأل الله أن يوفقنا لذلك.

****